

2



أسس النظام الإداري
في عهد «محمد علي»

obeikandi.com

أيام محمد علي

في إدارته لشئون البلاد.. كان «محمد علي» يتعامل مع مصر باعتبارها أملاكه الخاصة.. وكما سيحكى لنا التاريخ فيما بعد رسوخ هذا المنطق في سلالته من بعده والذي تجسد في الواقعة الشهيرة^(١) بين «الخدويي»^(٢) إسماعيل» والزعيم الشعبي «أحمد عرابي» والتي قال إسماعيل فيها لعرابي: «أنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائي وأجدادي.. وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا»..

ونعود لمحمد علي لنقول أنه ربما كان أكبر دليل على نظرتة تلك لمصر هو هذا المرسوم الذي أصدره ذات يوم لأحد حكام الأقاليم جاء فيه ما نصه: «البلاد الحاصل فيها تأخير في دفع ما عليها من البقايا أو الأموال يضبط مشايخها ويرسلون للومان «السجن» والتبويه على النظار بذلك.. وليكن معلوماً لكم ولهم أن مالي لا يضيع منه شيء بل آخذه من عيونهم».

ونرجع لبداية حكم «محمد علي» عندما استطاع القضاء على المماليك.. كان يخاف عودتهم.. بعد أن تشرذموا في مختلف أقاليم مصر.. لذلك منذ البدايات الأولى لاستقراره في الحكم عمل على ربط القاهرة بالأقاليم إدارياً بشكل قوى.. حتى يستطيع تتبع آثار من تبقى من المماليك في مصر.

ومن أجل إحكام قبضته على ذلك كله وضع سياسة تصنيعية وزراعية موسعة.. وضبط المعاملات المالية والتجارية والإدارية والزراعية لأول مرة في تاريخ مصر.. وكان جهاز الإدارة أيام «محمد علي» يهتم أولاً بالسُخرة وتحصيل الأموال

(١) إلا أن عرابي رد عليه قائلاً: قال: «لقد خلقنا الله أحراراً.. ولم يخلقنا تراناً أو عقاراً.. هو الله الذي لا إله إلا هو أننا سوف لا نورث.. ولا نستعبد بعد اليوم..» وحدث ذلك أثناء الثورة العرابية وهي الثورة التي قادها أحمد عرابي في فترة ١٨٧٩ - ١٨٨٢ ضد الخديوي توفيق والأوروبيون وسُميت آنذاك هوجة عرابي.

(٢) سنستخدم كثيراً كلمة «خدويي» ومن الأفضل أن نعرف القارئ بمعناها خاصة أنها من المفردات الدارجة ولا يعرف معناها كثيرون.. والكلمة تُكتب بطريقتين «خدوي» أو «خدويي» وتعرفها معاجم اللغة العربية بأنها: «لقب حاكم مصر تحت سيادة العثمانيين في بعض العهود الماضية» لكن المعنى الأقرب هو ملك البلاد.. أو الوالي الذي يحكم الولاية المصرية نائباً عن الخليفة العثماني.

أيام محمد علي

الأميرية وتعقب المتهرين من الضرائب.. وإحاق العقاب الرادع بهم.. وكانت الأعمال المالية يتولاها الأرمن والصيافة وكانوا من الأقباط والكتبة من الأتراك وذلك لأن الرسائل كانت بالتركية..

وكان حكام الأقاليم وأعاونهم يحتكرون حق التزام الأطنان الزراعية وحقوق امتيازات وسائل النقل فكانوا يمتلكون مراكب النقل الجماعي في النيل والترع بما فيها المعديات.

وكان حكام الأقاليم يعيشون في قصور.. ولديهم خدم وعبيد وكانوا يتلقون الرشاوي لتعيين المشايخ في البنادر والقرى.. وكان العبيد الرقيق في قصورهم يعاملون برأفة ورقة.. وكانوا يحررونهم من الرق.. ومنهم من امتلك الأبعاديات وتولى مناصب عليا بالدولة.. وكان يطلق عليهم الأغوات المعاتيق.. وكانوا بلا عائلات ينتسبون إليها فكانوا يسمون «محمد أغا» أو «عبد الله أغا» وأصبحوا يشكلون مجتمع الصفوة الأرستقراطية ويشاركون فيه الأتراك.. وفي قصورهم وبيوتهم كانوا يقتنون العبيد والأسلحة ومنهم من كانوا حكاماً للأقاليم..

وكانوا الأعيان المصريين يتقاسمون معهم المنافع المتبادلة.. ومعظمهم كانوا عاطلين بلا عمل.. وكثيرون منهم كانوا يتقاضون معاشات من الدولة أو يحصلون على أموال من أطنان الالتزام.. وكانوا يعيشون عيشة مرفهة وسط أغلبية محدودة أو معدومة الدخل.

وكان التجار الأجانب ولاسيما اليونانيين والشوام واليهود يحتكرون المحاصيل ويمارسون التجارة بمصر.. ويشاركون الفلاحين في مواشيهم.. وكان مشايخ الناحية يعاونونهم على عقد مثل هذه الصفقات.. وضمن الفلاحين.. وكانت عقود المشاركة بين التجار والفلاحين تُوثق آنذاك في المحاكم الشرعية.. وكان الصيافة في كل ناحية يعملون لحساب هؤلاء التجار لتأمين حقوقهم لدي الفلاحين.. ولهذا كان التجار يضمنون الصيافة عند تعيينهم لدى

أيام محمد علي

السلطات.. خاصة في المناطق التي كانوا يتعاملون فيها مع الفلاحين.. وكان التجار يقترضون الفلاحين الأموال قبل جني المحاصيل مقابل احتكارهم لشراء محاصيلهم.. وكان الفلاحون يسددون ديونهم من هذه المحاصيل.. وكان التجار ليس لهم حق ممارسة التجارة إلا بإذن من الحكومة للحصول على حق هذا الامتياز لمدة عام.. يسدد عنه الأموال التي تقدرها السلطات وتدفع مقدماً.

لهذا كانت الدولة تحتكر التجارة بشرائها المحاصيل من الفلاحين أو بإعطاء الامتيازات للتجار.. وكان مشايخ أي ناحية متعهدين بتوريد الغلال والحبوب كالسمن والزيوت والعسل والزبد لـ «شون»^(١) الحكومة لتصديرها أو إمداد القاهرة والإسكندرية بها أو توريدها للجيش المصري.. ولهذا كان الفلاحون سجناء قراهم لا يغادرونها أو يسافرون إلا بإذن كتابي من الحكومة..

وكان الفلاحون يهربون من السخرة في مشروعات «محمد علي» أو من الضرائب المجحفة أو من الجهادية.. وأحياناً كان من بين الفارين مشايخ القرى أنفسهم لعجزهم عن تسديد مديونية الحكومة..

«محمد علي» يهدد

ورغم وعود «محمد علي» إلا أن الآلاف كانوا يفرون للقرى المجاورة أو يلوذوا بالفرار والاختباء لدى العُربان.. وهذا ما جعل «محمد علي» ذات مرة يصدر مرسوماً جاء فيه بأن علي هؤلاء الهاربين العودة لقراهم في موعد كان أقصاه شهر رمضان من عام ١٨٣٥ وإلا سيكون جزاؤهم الإعدام والصلب كل علي باب داره أو دواره.. أما البدو فاستعان بهم في مطاردة آخر الشراكسة الفارين إلى مدينة دنقلة بالسودان وضم السودان لمصر واستمر ولاء رجال البادية القادمين من برقة للأسرة «محمد علي» وفي سنة ١٨٤٥ أصدر ديوان المالية لائحة الأنفار

(١) جمع شونة.. وهي المكان المخصص لتخزين الغلال.



المتسحين.. هددت فيها مشايخ البلاد بالقرى لتهاونهم وأمرت جهات الضبطية بضبطهم ومن يتقا عس عن ضبطهم سيعاقب عقاباً جسيماً.



«محمد علي»

والإصلاح الاقتصادي.. والزراعي!!

أدرك «محمد علي» أن ثروة البلاد والمحافظه على كيانها المالي من أكبر دعائم الاستقلال.. لأن العمران هو أساس التقدم.. والثروة الأهلية قوام الاستقلال المالي.. ولا يتحقق استقلال ولا استقرار سياسي دون دعم واستقرار مالي واقتصادي.. لذلك كان أول ما هدف إليه «محمد علي» في سياسته إصلاح حالة البلاد الاقتصادية.. والاهتمام بدعم حركة العمران لتنمو الثروة القومية.. وتتوافر الأموال اللازمة للتسليح وإنشاء المصانع وغيرها..

و ذات يوم قال «محمد علي» للقنصل الفرنسي في مصر آنذاك وكان يُدعى «ميمو» عندما أُنذره بتدخل أوروبا للحد من طموحه وأحلامه التوسعية:
«تخطئ أوروبا باعتبارها أنني في حاجة إلى مال.. وأكبر دليل على عدم صحة هذا الاعتقاد أنني لا أبيع محصول القطن.. مع أنه من أهم موارد مصر.. وجنودي يقبضون مرتباتهم بانتظام.. وإني لا أعقد قرضاً ما في بلاد ما.. ولست مديناً لأحد بشيء».

وقد تولى «محمد علي» بنفسه تنفيذ هذه السياسة القوية.. بعزيمة من حديد.. وبذل في ذلك جهوداً جبارة حتى خلف أعمالاً ومنشآت غير مسبوقة في تاريخ مصر الحديث يزدان بها تاريخه.. فشملت البلاد موجة من النهوض الزراعي كفلت لها الرخاء والأموال الطائلة التي أمكن بفضلها الاحتفاظ بقوات عسكرية كبيرة..

أيام محمد علي

ويكفي أن نلمح سريعاً لما نشأ في عهد «محمد علي» من ترع وجسور وقناطر أهمها القناطر الخيرية.. وتوسيع نطاق الزراعة خاصة زراعة القطن الذي يعتبر عماد الثروة في مصر.. وغيرها من باقي الزراعات.. وكذلك إنشاء مصانع الغزل والنسيج والجوخ والحريير والصوف والكتان والحبال والطرايش.. ومعامل سبك الحديد والألواح النحاسية.. والسكر والصابون.. لنذكر مدى ما كانت عليه سياسة مصر من سعة.. وأفاق كانت أهدافها ترمى إلى جعل مصر دولةً صناعيةً زراعيةً عظيمة الثروة.. مزدهرة العمران.. تتمتع بجيش وقوة عسكرية متميزة.. يمكنها أن تحقق مبدأ الكفاية الذاتية لقواتها لتصون استقلالها..

المنهج العلمي الواقعي

وتكشف التنمية المتوازية في عدد من المجالات التي لا ترتبط مباشرة بالفنون والصناعات الحربية.. عن وعي واضح لدى محمد علي بالمنهج العلمي الواقعي في التعامل مع تشابك المجالات الحربية والاقتصادية والسياسية.. فلا استقلال بدون اعتماد على النفس في فنون الري والصناعة والتعليم.. وهذا يفسر الاهتمام البالغ بإنشاء البنية الأساسية في مجال الزراعة.. مثل:

- إعادة تشغيل الترع المطمورة..
- حفر ترعاً أخرى جديدة في شتى أنحاء مصر..
- إنشاء الجسور على شاطئ النيل من جبل السلسلة^(١) جنوباً حتى البحر الأبيض المتوسط شمالاً لمنع فيضان المياه على ضفتي النيل..
- إنشاء جسور أخرى على أفرع النيل..
- إنشاء قناطر عديدة على الترع لضبط مستويات المياه تيسيراً للانتفاع بالري.

(١) موجود بأسوان بالقرب من الحدود المصرية السودانية.

إنشاء القناطر الخيرية

وكانت أراضي الوجه البحري تُروى بطريق الحياض كروي الوجه القبلي فلا يُزرع فيها إلا المحاصيل الشتوية.. فتم إنشاء القناطر الخيرية لضمان توفير المياه في معظم السنة.. وعهد «محمد علي» بدراسة هذا المشروع قبل تنفيذه إلى جماعة من كبار المهندسين منهم «لينان دي بلفون» وبدأ تنفيذه سنة ١٨٢٤ لكن مهندسا فرنسيا آخر هو «موجيل» أعد تصميمًا مختلفًا تحمس له أكثر محمد علي وبدأ التنفيذ بمساعدة مهندسين مصريين تخرجوا من البعثات العلمية.. وتعتبر هذه القناطر التي تعمل في شمال القاهرة حتى الآن من أولى القناطر الكبرى التي تقام على نهر واسع في العالم.

تغيير السياسة الزراعية

وكانت نتيجة الإصلاحات الزراعية واسعة النطاق تغيير عدد من الحاصلات.. فبعد أن كانت أهم الحاصلات في مصر تتمثل: القمح والشعير وال فول والعدس والحمص والذرة والتمرس والبرسيم وقصب السكر والقنب والكتان والخضر والفواكه.. وقليل من القطن.. تم التوسع بغرس شجر التوت لتربية «دود القز»^(١).. وبعد أن كان القطن المصري يُزرع من أصناف رديئة.. تمت زراعة القطن طويل التيلة.. تبعاً لنصيحة جوميل الذي استقدمه «محمد علي» لتنظيم مصانع النسيج.. وأقبلت على طلب القطن المصري مصانع النسيج في فرنسا وإنجلترا.. وأصبح أساس الثروة الزراعية في مصر.



(١) لإنتاج الحرير.